تمثُّلاتُ الشَّتاتِ في أعمالِ إبراهيم السَّعافين النَّثريَّة

Representations of the Diaspora in The Prose Works of Ibrahim Al-Saafin.

أحمد محمد صالح بني عطا [1]

Ahmad mohmmad saleh bani ata [1]

10.15849/ZJJHSS.240730.05

الملخص

تبحثُ هذه الدِّراسةُ في تمثّلاتِ الشَّتاتِ في أعمالِ إبراهيم السَّعافين النَّثريَّةِ، وهيَ موزَّعةٌ بين روايةٍ (ظلالُ القطمون، الطّريقُ إلى سحماتا) وسيرةٍ ذاتيَّةٍ (سلالةُ السّنديان). وتستندُ الدِّراسةُ على الهُويَّةِ سواءٌ أكانت دينيةً أو اجتماعيةً. كما وتستندُ على المقاومةِ، من مقاومةِ الحدثِ إلى مقاومةِ الذَّاتِ. وأخيرًا على الاغترابِ سواءٌ أكان الاغترابَ المكانيَّ أو الاغترابَ الزَّمانيَّ أو الاغترابَ الرُّوحيَّ والوجدانيَّ. وستقومُ هذهِ الدِّراسةُ على المنهجِ التَّحليليّ الوصفيّ. كما وتضمّنَتِ الدِّراسةُ خاتمةً وقائمةً بالمصادرِ والمراجعِ. وخلصتِ الدّراسةُ إلى أنَّ أعمالَ إبراهيم السَّعافين تتضمَّنُ دلالاتٍ مختلفةً، تتنوّعُ بينَ الهويَّةِ والمقاومةِ والاغترابِ. ويقدّمُ السَّعافين تمثُّلاتٍ متعدّدةٍ لتجارِبِ الشَّتاتِ والانقساماتِ الدَّاخليَّةِ للأفرادِ والمجتمعاتِ. ويستخدمُ السَّعافين اللُّغةَ والصُّورةَ بشكلٍ مميَّزٍ ليعبّرَ عن تلكَ التَّمثُّلاتِ.

الكلمات المفتاحية: تمثّلات الشّتات، إبراهيم السّعافين، ظلال القطمون، الطّريق إلى سحماتا، سلالة السّنديان.

Abstract

This study examines the representations of diaspora in Ibrahim Al-Saafin's prose works، which are divided between fiction (Shadows of Katamon، The Road to Sahmata)، and autobiography (The Oak Lineage). The study is based on identity، whether religious or social، and is also based on resistance، from resistance to event to resistance. The self and finally on alienation، whether it is spatial alienation، analytical approach. The study also included a conclusion and a list of sources and references. The study concluded that Ibrahim Al-Saafin's works contain different connotations، ranging from identity، resistance، and alienation. Al-Saafin presents multiple representations of diaspora experiences and the internal divisions of individuals and communities. Al-Saafin uses language and images in a distinctive way to express these representations.

Keywords: Representations of the diaspora، Ibrahim Al-Saafin، Shadows of Qatamon، The road to Sahmata، The oak dynasty

[1] جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الدراسات العليا، اللغة العربية، دكتوراه في الدراسات الأدبيّة والنقديّة

*** للمراسلة:** D87oody@yahoo.com

تاريخ استلام البحث: 2024/03/31

تاريخ قبول البحث: 2024/05/20

[1] International Islamic Sciences University, Graduate Studies, Arabic language, Doctorate in Literary and Critical Studies

*** Corresponding author:** D87oody@yahoo.com

Received: 31/03/2024
Accepted: 20/05/2024

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

المقدمة

تعدّ ظاهرة الشتات من الظواهر الاجتماعية والإنسانية التي أثّرت بشكل عميق على مجموعات كبيرة من البشر عبر التاريخ. تجاوزت هذه الظاهرة الحدود الجغرافية والثقافية، وأثّرت على مختلف جوانب الحياة الإنسانية بشكل كبير. يعود الشتات إلى مفهوم الانفصال أو التشتت عن وطن أو مجتمع محدّد، وهذا يمكن أنْ يكونَ نتيجة لعوامل متعدّدة منها النزاعات السياسية، والأوضاع الاقتصادية، والتغيّرات الاجتماعية.

وفي الحديث عن هذه الظاهرة لا بدّ من الإشارة إلى أهمية تجربة الدكتور إبراهيم السعافين، كونه روائيًّا له حضورٌ كبيرٌ في الرواية العربية. حيث تمثّل تجربته الروائية نموذجًا مهما للرواية العربية، فنحن في حضرة روائي كبير، وقف على الرواية وقفةً متأنّيةً في تقديم تجربة مميزة وفريدة للقرّاء بأسلوب يعكس رؤى فريدة وعميقة للحياة والإنسانية.

تقدّم أعمال السعافين نماذج متنوعة لمضامين الشتات وتمثّلاته، حيث شهد المجتمع الفلسطيني العديد من التحولات: التهجير والاقتلاع الذي مارسه الصهيوني على الشعب الفلسطيني بعد النكبة. مما فرض عليه الارتحال خارج أرضه. وتصوير الواقع المرير الذي حدث للّاجئ في أوطان الآخرين، كما وتصوّر علاقته بين رفض الاندماج في ذلك الواقع والحفاظ على الهوية الفلسطينية التي زرعت في ذهن الفلسطيني منذ الصغر للحفاظ على قضيته.

وتتضح أهمية الدراسة على إشكالية أساسية هي رصد تمثّلات الشتات في أعمال السعافين. كما أنّها قدمت العديد من صور اللّاجئ الذي خرج من بلاده باحثًا عن الأمان والطمأنينة، والعيش الكريم، غير أنّه اصطدم بمجتمع مختلفٍ فكريًّا وثقافيًّا، ويختلف في العادات والتقاليد. كما قدمت علاقة اللّاجئ في المكان والزمان، وبروز مشاعر استوطن فيها الحنين والاشتياق والتذكّر. وهدفت الدراسة إلى دراسة التمثّلات من هوية واغتراب ومقاومة.

أولًا: الهُوية

يسعى المرء إلى إثبات هُويته، وإبراز ملامحها التي تميّزه، وتفرده ضمن الجماعة التي يعيش فيها، فتغدو علامة دالةً عليه. مثلما تسعى الجماعة ذات الخصائص الواحدة والظروف والمرجعيات الفكرية الواحدة الى إبراز وإثبات هويتها التي تميزها عن غيرها من الجماعات باختلاف الظروف والخصائص والمرجعيات.

يعيش الفلسطيني في الشتات صراعًا في المحافظة على الخصائص التي شكلت الأنا الفلسطينية الدالّة. لا سيّما بوجود مساعٍ تهدد وجودَه وتهدف إلى تذويب هُويته وتقويضها، تتجلى في أغلب روايات الشتات الفلسطيني الملامح الخاصة بالهُوية الفلسطينية والظروف التاريخية والاجتماعية والدينية التي كانت وراء تشكّلها وتفرّدها، وسعيها في الحفاظ على خصوصيتها، والدفاع عن حقوقها وسط اندماجها مع الآخر وتعايشه معه.

أ. الهُوية في اللغة

جاء في معجم لسان العرب: "(هوى) بفتح الهاء والواو، وأصلها (هَوِي) بفتح الهاء وكسر الواو... يهوي هويًا وهَويانا. وانهوى سقط من فوق إلى أسفل، وأهواه هو، ويقال أهويته إذا ألقيته من فوق... ومنه (هوية) تصغير هوة... وقيل الهوية: بئر بعيدة المهواة. وقيل الهوة: الحفرة البعيدة القعر وهي المهواة"[1].

[1] ابن منظور: **لسان العرب**، دار صادر للطباعة والنشر، ج15، بيروت، لبنان، 1990، مادة (هوى)، ص375.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

وقال ابن الأعرابي: (هُوِيّة) أراد (أهْويّة)، فلما سقطت الهمزة ردت الضمة إلى الهاء... وفي الحديث: إذ عرّستم فاجتنبوا هُوِيَ الأرض. وهي جمع هوة... وهي الحفرة والمطمئن من الأرض"[1].

وفي المعجم الوسيط: "الهُوِيّة: بضم الهاء حقيقة الشيء، أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية التي تميزه عن غيره"[2]. والهُوية بحسب معجم اللغة العربية المعاصر: "مصدر صناعي من هُوَ، والهُوية: إحساس الفرد بنفسه وفرديته وحفاظه على تكامله وقيمته وسلوكياته وأفكاره في مختلف المواقف"[3].

ب. الهُوية في الاصطلاح

يعدّ موضوع مفهمة الهُوية من المواضيع الجدليّة؛ ذلك أنَّها تخضع أو تتبع في تعريفها للعلم الذي يحقّق فيها. فلكل علم أو حقل تعريفه الخاص للهُوية ضمن سياقاته، كالهُوية في الفلسفة، والهُوية في علم النفس، والهُوية في علم الاجتماع، والهُوية في السياسة، وغيرها من العلوم الإنسانية المتنوعة.

على الرّغم من هذا التنوع في الحقول أو العلوم التي بحثت مفهمة الهُوية نجدها تُجْمع أو تكاد على أنَّ الهُوية هي الخصوصية المميزة لشيءٍ ما عن غيره.

فالهُوية عند بعضهم بتعريف أقرب إلى الشمولية: "مجموعة السمات المميزة لشعب من الشعوب متمثّلة في اللغة والعادات والتقاليد والثقافة والمواقف المشتركة بصدد القضايا المصيرية"[4]. وهي "إسراع الإنسان إلى تأكيد ذاته باحثًا عن شيء أصيل كامن في أعماقه، ركن إليه كي يحسَّ بالثقة والأمان، والقوة لمواجهة الخطر، وبذلك تتشكل الهوية في ثنايا الذات، حيث تتجسد عبر انتماءات ومكونات تتعلق بالجنس والعمر والطبقة الاجتماعية والموروث الثقافي"[5]. وهي مع هذا "حقيقة تولد وتنمو، وتتكوّن، وتتغاير، وتشيخ، وتعاني من الأزمات الوجودية والاستلاب[6]".

ج. الهُوية الدينية في أعمال السعافين

ازداد اهتمام المفكرين المسلمين والعرب في القرون الأخيرة بموضوع الهُوية، لا سيّما الهُوية الدينية نظرًا للخطر الذي يهدد هذه الهُوية ومرتكزاتها. وبوجود محتلٍ ومستعمرٍ غاصبٍ على الأراضي العربية الإسلامية، يصبح هذا التهديد أكثر خطورة، خاصة مع مصاحبته لدعوات الحضارة ودعوات ما بعد الليبرالية، ودعوات العولمة من جهة، ومخططات لعدوٍ يسعى إلى طمس حضارةٍ وتاريخِ شعبٍ بل وهُويته الدينية إذا اقتضت الظروف، أو لاحت من جهة ثانية. تعرّفنا سابقًا مفهوم الهوية وسياقاتها، التي تعني بأبسط معانيها وأشملها (الخصوصية التي تميز شيئًا ما عن غيره). فما الذي يميّز هُويتنا الدينية كعرب مسلمين؟ إنَّ مقصد الباحث من الهُوية الدينية الإسلامية هنا لا يخرج عن الإيمان بالعقيدة الإسلامية لهذه الأمة المنبثقة عن كتابها السماوي القرآن الكريم، وسنة رسولها

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**، ص376.

[2] إبراهيم أنيس ومجموعة من الباحثين، مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق، ط4، القاهرة، مصر، 2004، ص875.

[3] عمر، أحمد مختار: **معجم اللغة العربية المعاصرة**، دار الكتب، ج3، القاهرة، مصر، 2008، ص2372.

[4] القيلقلي، عبد الفتاح، وأبو غوش، أحمد: **الهوية الوطنية الفلسطينية، خصوصيه التشكيل والإطار الناظم**، المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين، بيت لحم، فلسطين، 2012، ص17.

[5] حمود، ماجدة: **إشكالية الأنا والآخر، نماذج روائية عربية، سلسلة عالم المعرفة**، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2013، ص15.

[6] ميكشيللي، أليكس: **الهوية**، ترجمة د. علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، ط1، دمشق، سوريا، 1993، ص7.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

الكريم محمد –صلى الله عليه وسلم– والاعتزاز بالانتماء إليها، واحترام قيمها وتعاليمها ومرتكزاتها، وتعظيم فروضها وشعائرها. وبما أنَّ لكلِّ هُويةٍ دينيةٍ مقوماتها وسماتها، فإنَّ للهويّة الإسلامية مقوّمات وسمات تعطيها طابعًا خاصًّا، وتعطي أهلها وأتباعها ما يميزهم عن غيرهم من الأمم والجماعات تجعل من الواجب علينا الاعتزاز بهذه الهوية، والتمسك بمقوماتها. وقد حثّ القرآن الكريم في غير موطن على هذا، ولو نظرنا –على سبيل المثال لا الحصر– في الآيات 104–145 من سورة البقرة لوجدنا أنَّها في جلّها تتحدث عن وجوب التمسك والاعتزاز بديننا، وشريعتنا، وهويتنا الخاصة، واتّباعها منهجًا وسلوكًا، والابتعاد عمّا ينتهجه الكفار والمشركون اعتقادًا ومنهجًا وسلوكًا. يقول تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[1]. فهذه دعوة صريحة من الله أن نتبع الهديَ الإلهي الإسلامي، ونبتعد عن ضلال اليهود والمشركين. وقد قال سيد قطب –رحمه الله– عن هذه الآيات (104–145) من سورة البقرة وما تلاها: "إنَّ المادة الأساسية لهذا الجزء ولبقية السورة هي إعطاء الجماعة المسلمة خصائص الأمة المستخلفة، وشخصيتها المستقلة بقبلتها وبشرائعها المصدقة لشرائع الديانات السماوية قبلها والمهيمنة عليها وبمنهجها الجامع الشامل المتميز كذلك... وقبل كل شيء بتصورها الخاص للوجود والحياة، ولحقيقة ارتباطها بربها ولوظيفتها في العارض، وما تقتضيه هذه الوظيفة من تكاليف في النفس والمال وفي الشعور والسلوك ومن بذل وتضحية..."[2].

نجد أيضًا في تلك الآية مناسبة تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، التي تعد من أهم الأدلة على فرضية التمييز والاختصاص، وهذا لُبُّ موضوع الهوية الذي يريده الله للمسلمين ويخصهم به، قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[3].

فقد كان الرسول –صلى الله عليه وسلم– يحب أن تتحول القبلة إلى الكعبة؛ لأنّها قبلة أبيهم إبراهيم، وأولى القبلتين وأدّعى للعرب إلى الإيمان، ولمخالفة اليهود[4]. فالهوية الإسلامية تشمل كل ما يشير إلى الدين الإسلامي من عبادات أو أخلاق أو ألفاظ أو تاريخ... اختص به أهل هذا الدين وأتباعه فميزهم عن سواهم الخلق وغدا هويتهم.

تجلت الهُوية الدينية في أعمال السعافين في غير موطن، وبأشكال متعددة، فمن الألفاظ إلى العبادات وإلى الأخلاق... وجاءت في أغلبها خادمةً للنص أو لشخصيةٍ ما أو لحدث ما. وقد تأتي خادمة لإبراز المكان والزمان، والجو العام الذي يعيشه الفلسطيني المقدسي.

---

[1] سورة البقرة: الآية 120.

[2] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، دار الشروق، ط15، مجلد 1، ج2، القاهرة، مصر، 1408هـ، ص123.

[3] سورة البقرة: الآية 144.

[4] الشيرازي، ناصر الدين: **تفسير البيضاوي**، دراسة وتحقيق عبد القادر عرفان العشا، دار الفكر، ج1، بيروت، لبنان، 1416هـ–1969م، ص420.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

"نقضي وقتا في مدينة القدس لا سيما القدس القديمة، ونتعرف دور العبادة فيها المساجد والأضرحة والأديرة والكنائس، ونستمتع بالجو الروحاني منقطع النظير وخاصة يوم الجمعة حيث كان يقدّم الدرس الديني الأسبوعي الشيخ عبد الله غوشة، ويقرأ القرآن الشيخ عبد الله يوسف، وينقل شعائر صلاة الجمعة المذيع الشاب لبيب العسلي"[1].

ينقلك مثل هذا النص إلى مدينة القدس، حيث المكان يشع بالروحانية الدينية، حيث مهبط الأنبياء، ومسرى الرسل، ومعراجهم، تلك الأرض المباركة التي يتسع صدرها للتنوع العقدي، فتسمع تكبيرات المساجد، وترانيم الكنائس، وآيات الله تتلى مؤذنةً بالسلام والوئام بين عباده. يعيش المسلم واليهودي والمسيحي، يتجاورون ويتشاركون المكان، والزمان، والتجارة، ويتعاودون في المناسبات، قبل أنْ يكدّر المخطط الصهيوني المكان والزمان.

ترسم أعمال السعافين صورة للشخصية المسلمة المؤمنة بالله المتوكلة عليه في كل شؤونها "بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء"[2]. تؤدي فرائضها وعبادتها لله سبحانه وتعالى، داعية الله في كل وقت، وراجية رحمته ورضاه في كل حين مستبشرة بفضله ونعمته.

"كان يراه فجر كل يوم يدخل مسجد الإمام الصوفي أحمد الفالوجي، يصلي ويدعو ثم يخرج مستبشرًا"[3]. لقد أمرنا الله بالعبادة، والصلاة فرض على كل مسلم على رأس هذه العبادات. قال تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"[4].

وحثّنا سبحانه على دعائه، والطلب منه، وعليه –جلّ وعلا– الاستجابة للمؤمنين. قال تعالى: "وقال ربكم ادعوني أستجب لكم"[5].

هذه بعض سمات الشخصية الإسلامية التي أرادها الله، وقد برزت هذه السمات في هُوية بعض الشخصيات الإسلامية من أعمال السعافين. فهذه صورة الضبع الأسود، في خضم اشتداد المعارك مع المحتل الغاصب، ودفاع بعض الجيوش العربية إلى جانب المقاومين عن الأرض العربية الفلسطينية. نجده قد "دعا الله ألا يرى لحظة نزول العلم المصري عن ساريته على مبنى البلدية صلّى ركعتين ثم نظر إلى السقف. كأنه يقرأ بعض الآيات بالخط الكوفي، تخيل أنه يقرأ آيات تحض على الصبر والقتال وعلى فضل الشهادة"[6]. وهذا الأميرالي السيد طه كان "كلما ضاقت الأمور، وغشيه القلق أو الحزن يذهب إلى المقام ويصلي ركعتين ويدعو الله أن يبيض وجوه المقاتلين"[7].

والشخصية الإسلامية مؤمنة ومسلّمة بأنَّ الرزق كذلك من الله وحده، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[8]. تجلّى هذا في شخصية معاوية العمر الذي لامه من حوله على تبديد المال في سبيل إكرام الضيوف، لكن معاوية كان يجيب دائما بأنَّ المال لله وأنَّ الرزق من عند الله وحده، وأنَّ للضيف واجبه.

---

[1] السعافين، إبراهيم: **سلالة السنديان**، ص51–52.

[2] السعافين، إبراهيم: **الطريق إلى سحماتا**، ص171.

[3] السعافين، إبراهيم: **ظلال القطمون**، ص194.

[4] سورة الذاريات: الآية 56.

[5] سورة غافر: الآية 60.

[6] السعافين، إبراهيم: **ظلال القطمون**، ص242.

[7] المصدر السابق، ص220.

[8] سورة الذاريات: الآية 58.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

"بعد أنْ بددّ معاوية أمواله في إكرام ضيوفه، إلى أن باع مسدسه ليكرمهم، لامته أمه على هذا فقال الراوي: لم يندم معاوية على ما فعل، قال: الرزق على الله، كل شيء في كتاب"[1].

يتناص قول معاوية بوجه مع قوله تعالى: "وكل شيء أحصيناه في كتاب مبين"[2]. ناهيك عن الآيات الكثيرة في القرآن الكريم الدالة على أنَّ الرزق بيد الله وحده. وقد تأتي التناصات الدينيةَ صريحةً ومباشرةً، خادمة للشخصية والحدث معًا، دالة على هُوية المسلم المؤمن بالله وبرزقه، ومتوكلة عليه في السراء والضراء، ومؤمنة كذلك بنصره وتأييده. ففي لحظات من سيطرة اليأس على المؤمن، يتذكر وعد الله سبحانه وتعالى بنصره للمؤمنين، فيسلّم بأنَّ النصر كذلك من عند الله، فيبعث في نفسه الأمل من جديد، ويهبّ لمقاومة الظلم والظالمين. وظهر مثل هذا جليًّا في بعض الأحداث التي مر بها الأميرالي السيد طه، فبينما كان يتملكه بعض من اليأس غفا قليلًا فسمع هاتفا قال له: "يا سيد أنت ولي الله ولن يخذل الله أولياءه، ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ، إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ، وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾"[3]. وهذا تناص بل اقتباس صريح من كتاب الله سبحانه وتعالى في سورة الصافات[4]، حيث يبشّر جنده من المؤمنين بالنصر والعزة، ولو بعد حين.

هذه بعض من الملامح الدالة على الهوية الدينية للفلسطيني في روايات السعافين، جاءت دالةً على الإيمان بالله، والتسليم بقضائه وقدره، والتوكل عليه في كل شؤون حياتنا.

د. الهُويّة الاجتماعية في أعمال السعافين

يمتاز المجتمع الفلسطيني بالتعاون والمشاركة والمساعدة للآخر وإغاثة الملهوف، ويعيش الجيران وأبناء الحواري وكأنّهم أسرةٌ واحدةٌ. وقد برزت هذه الميّزة في أعمال السعافين بشكلٍ واضحٍ يظهر هُويّة هذا المجتمع الكريم المتعاون. "ففي حارة الحدادين، الكل يعرف الكلّ، لا أحد يعيش بمفرده فالجميع متضامنون، طبق الطعام يدور على كلّ البيوت، وأطفال الحارة هم أطفال الجميع، يسأل سكانها تلقائيا عن أحوال بعضهم بعضًا، ويحترم كلّ منهم عادات الآخر وطقوسه، وإذا غاب أحد الرجال أو النساء فمن مسؤولية الجميع أن يسألوا عن الغائبة أو الغائب ولا ينامون الليل حتى يصلوا إلى نتيجة تطمئن وتريح"[5].

بل إنّ الكرم، وحسن الضيافة، وحسن الجوار، قد يصل حدَّ إكرام الآخر إكرامًا وكأنّه من أهل البلدة، هذا ما حدث من إكرام عواد العامر لمارغريت وبيرثا الإنجليزيتين، فقد "أحبّت بيرثا المدينة المقدسة حبًّا استثنائيًّا، تعرّفت على أهلها في جبل المكبّر، كان عواد العامر يأتيها كل يوم بسطل من الحليب الطازج، ويأتيها في الصيف كل أسبوع بسلة من العنب والتين والخوخ، وكان يدعوها وزوجها مرتين في السنة على الأقل لتناول الأكلة التقليدية لدى عرب السواحرة المنسف... تتعجب من كرمهما، يرفضان أن يأخذا أي مقابل"[6]. فالعبارات مثل (كلَّ يومٍ) و(كلَّ أسبوع) تشير إلى أنَّ الكرم والتعاون وحسن الجوار أصبحت صفاتٌ لصيقةٌ بالفلسطيني، يمارسها في طبعه ولا يكل

---

[1] السعافين، إبراهيم: **الطريق إلى سحماتا**، ص27.

[2] سورة يس: الآية 12.

[3] السعافين، إبراهيم: **ظلال القطمون**، ص220.

[4] سورة الصافات: الآيات 171-173.

[5] السعافين، إبراهيم: **ظلال القطمون**، ص5455.

[6] السعافين، إبراهيم: **ظلال القطمون**، ص196.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

منها، أما الآخر فله أنْ يتعجب من هذه الصفات لأنه لا يمتلكها في المجتمعات الغربية غير معتادة على مثل هذه الصفات، بل لا بد من مقابل إزاء كلّ عملٍ أو تصرف من أحد.

أمّا حين يتعلق الأمر بإغاثة الملهوف ومساعدة الجنود المقاتلين، يصبح إكرامهم ومساعدتهم واجبًا، وتعي المرأة الفلسطينية ذلك ويبرز دورها في إعداد الطعام للمدافعين عن القرى، والبلدات، "قال لها: يا رشا الجيش الذي يدافع عن البلدة محاصر، لم تكن الإمدادات تأتيه من غزة أو الخليل، لا بد أن نساعدهم، لم تكن رشا في حاجة إلى من يثير عاطفتها، كانت ترى ذلك واجبًا... هؤلاء الذين تركوا أمهاتهم وعائلاتهم وقراهم ونجوعهم للدفاع عن البلدة، يستحقون أن توفر لهم نساء البلدة الطعام"[(1)].

أمّا الرجال الفلسطينيون، فيربون أنفسهم وأولادهم بأنَّ البكاء للرجل عيب وعار، "يوسف لا يعرف البكاء، من تقاليد الناس في البلدة أن الرجال لا يبكون، ومن تقاليدهم أن بكاء الرجال عار"[(2)]. وإذا شعر الفلسطيني بالمذلّةِ والمهانةِ خاصة إذا فقد أرضه، أو بلدته بسبب المحتل الغاصب فإنَّ الرجال خاصّة المختار وكبار البلد يضعون العقال في رقابهم. "أثاره منظر النساء والأطفال والشيوخ والعجائز المهجرين، يتقدمهم المختار الذي وضع عقاله حول رقبته، ولفّ عنقه بكوفيته تعبيرًا عن المذلّة التي حاقت به وبالقرية"[(3)].

ومن التقاليد الدالّة على هُويّة الشعب الفلسطيني (سوق الخميس). وقد رسم لنا السعافين جانبًا من هذه الصورة لسوق الخميس حيث "يجتمع فيه الناس من كل أنحاء فلسطين من رأس الناقورة حتى رفح... يروي أحد الخبثاء من رواد السوق أنَّ أهالي البلدة كانوا يستغلون مناسبة هذا اللقاء الكبير لتصفية الحساب مع الذين يسيئون إليهم في سفراتهم خارج البلدة، كانوا يقولون: بجيك خميس. أي سيأتي بك سوق الخميس". وفي الشتات يتذكر: "خلت الديار حتى من أهلها يا سوق الخميس[(4)]".

أمّا الأعراس والمناسبات والأفراح فلها هُويةٌ خاصةٌ عند الفلسطيني، تبدأ من العادة الغالبة وهي أنَّ العروس تزوّج لابن عمها، وإذا أحبّ شخص فتاة حبًّا جنونيًّا وبادلته هي ذلك فقد يقدم على خطفها. "جنت بقامته الشامخة، وطلته البهية، فأحبته بعمق، قالوا سحر أحدهما الآخر، قالت له: إنَّ أهلها يرغبون في تزويجها لابن عمها، ابن عمها فتى لا يعيبه شيء ملموس، لكنها لا تتخيله رفيق حياته، ولذا وافقت على الفور حين عرض عليها أن يخطفها، قيل: كان الخطف عادة متبعة في مجتمع الفتاة"[(5)]. تبدأ مواسم الأفراح عادة في الربيع، وبداية الصيف، حيث تقام التعاليل والغناء والدبكة، وهو الموسم الأجمل في كل الفصول "إذ تستمر (التعليلة) وهي سهرات العرس إلى ما يزيد على أسبوع، حيث تنصب قدور الشاي بالزنجبيل، أو الميرمية، وتتاح السجائر لكل من يريد من اللولو والكمال والمولد ستار، وتعقد حلقات الدبكة، والسامر، والمحظوظ من يحضر عرسه قائد الدبكة الأول والمغني وعازف الناي أبو صيّاح... كان يصدحون بكلام يبعث على التأمل العميق، شباب قوموا العبوا والموت ما منه والعمر مثل القمر ما ينشبع منه، كان كلام الأغاني والسامر من عمق التجربة في التراث الشعبي الفلسطيني، وقد

---

(1) السعافين، إبراهيم: **الطريق إلى سحماتا**، ص82.

(2) المصدر السابق، ص80.

(3) السعافين، إبراهيم: **ظلال القطمون**، ص152–153.

(4) السعافين، إبراهيم: **الطريق إلى سحماتا**، ص24.

(5) المصدر السابق، ص20.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

يقف الإنسان ضاحكًا أمام المبالغات المسرفة حين يقول قائلهم: والله ما أكذب ولا لي في الكذب نية، ميتين مقطر جمل في قاع قنية. أي أنه لا يكذب ولا ينوي الكذب، وما يرويه أن ثمة مائتين قاطرة من الجمال في قاع قنية"[1].

يستذكر الفلسطينيون في الشتات كل هذه المناسبات: "سهرات الناس في الدواوين والمضافات وغناء الناس في الأعراس، والاحتفالات الجماعية الجميلة في الدبكة والسامر والدحية وزغاريد النساء التي تملأ المكان، فكر خليل: أين حياة الناس في ظل هذا الحصار[2]". لكنه يعتزّ بها فهي جزءٌ منه ترافقه في شتاته، بل إنَّ الآخرَ ممن يعرف الفلسطيني ويفرح له، يعرف أنَ الفلسطيني مجبول على هذه العادات التي يعشقها، وحرمه الاحتلال والتهجير منها، فهذا الإنجليزي بوب يفرح لخطبة عدنان وسلمى، بل "فاجأ بوب الحضور بأن أمسك بيد محمد عاشور وطلب من أسامة وعدنان وروز وحنان أن ينضما إلى حلقة ظبية فلسطينية لبنانية قاد بوب الحلقة وكأنه فلسطيني من سحماتا"[3].

وفي مواسم الأعياد وموسم رمضان تجد للشعب الفلسطيني هُوية خاصة، حيث "ترى النساء في أيام رمضان يجلسن أمام الطبليات يفتلن (الشعيرية)، حتى إذا جاء العيد أصبحت حلوى شعبية ترش بالسمن البلدي والسكر، وترى الرجال شيبًا وشبانًا وقد لبسوا أجمل ما لديهم (ليعايد) بعضهم بعضا، ويمنحوا الأرحام والأطفال ما تيسر من نقود في موكب بهيج يتقدمهم الكبار وذوو الجاهة والوجاهة"[4].

للشعب الفلسطيني هُويةٌ خاصةٌ كذلك في ملبسه، فالمرأة ترتدي الثوب الطويل المزركش ويطلقون على الأثواب أسماء خاصة بعضها لها دلالات موحية، فقد رفضت ربيحة لبس ثوب يطلق عليه (ثوب المندوب السامي) لأنَّه يحمل اسمه، تبرز روايات السعافين أشكالَ هذه الأثواب وأسماءها فقد وضعت أم العبد أمام ربيحة خيارات متعددة من الأثواب التقليدية: "عيون عزرائيل، المردن، عرق النجوم، عرق الفنجان، عرق البطة، عرق النثر، عرق الحماة والكنة، عرق البندق، عرق البكرج، عرق الشيشة، عرق قبور اليهود، عرق المندوب السامي، عرق السلحلك، عرق لفني ما بتلف، عرق الدالية، عرق وردتين ووردة، عرق الأسد، وغيرها. فاختارت للتمويه ثوب الملس المقدسي، ولكن سعاد اختارت لها ثوبا من ثياب بيت صفافا، وعلى السياج سيتم كل شيء"[5]. وغيرها الكثير من الأسماء التي يطلقونها على الملابس، خاصة أثواب النساء، ويبدو أنَّ لكل ثوبٍ دلالةٌ خاصةٌ يعرفها الفلسطينيون أكثرَ من غيرهم.

هذه بعض من ملامح هوية الشعب الفلسطيني التي يمتاز بها وتدل وتشير إليه.

---

[1] السعافين، إبراهيم: **سلالة السنديان**، ص28. وانظر: **ظلال القطمون**، الصفحات: 203، 205، 212، 213، 321.

[2] السعافين، إبراهيم: **الطريق إلى سحماتا**، ص24.

[3] المصدر السابق، ص190.

[4] السعافين، إبراهيم: **سلالة السنديان**، ص27.

[5] السعافين، إبراهيم: **ظلال القطمون**، ص341. وانظر: ص346.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

ثانيًا: المقاومة

في سبيل حفاظ الفلسطيني على هويته الشخصية والدينية والاجتماعية وغيرها، يقاوم في سبيل ذلك أمورًا عدة، سواءٌ أكان ذلك في وطنه أو في شتاته. ومن صور المقاومة هذه قد تتجلى مقاومته للاحتلال، ومقاومته للذات، ومقاومته للمجتمع.

أ. مقاومة الاحتلال والمحتل

لعل أول شيء يواجه الفلسطيني ويسعى لمقاومته، هو المحتل الذي يسعى بكل الوسائل إلى دفعه للتهجير وترك أرضه وبيته ووطنه، بما يمارسه من القتل والاضطهاد على الفلسطيني المحتل الذي يقتل الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، ويقلع الزرع ويهدم البيوت... والحدث أصعب ما يقاومه الفلسطيني، فقبل الهجرة واللجوء والشتات، يعيش الفلسطيني صراعا مع الأحداث الجارية على أرضه. يظهر هذا في غيرِ مكانٍ في أعمال السعافين، فرشا "قد تجلدت وهي تودع أولادها حتى إذا ما ابتعدوا وغابوا عن النظر خذلتها كل محاولة للتصبر فراحت تعول عويلا يفتت الصخر. قال لها خليل: ألم تري ماذا حدث للبلدة طيلة هذه الشهور الماضية؟ كل يوم نحن هؤلاء الأطفال لنلتجئ إلى واد أو نأوي إلى حقل بعيد. كان محمود يحمل معطفه على رأسه فإذا بالرصاصة تلامس إصبعه. إذ لو أنها اتجهت اتجاها آخر؟ ماذا حدث لأسرتك يا رشا؟ ماذا فعلت الطائرات بهم؟ عددنا تسعة قتلى من بينهم مرة واحدة؟ ألم تتعظي بما حدث لأمك؟ ما تزال عروق يدها وعظام ساعدها بارزة. هل ظننت أنها ستعيش حتى الآن؟ في كل يوم تغير الطائرات. هدفها كل شيء وحين يكون الهدف كل شيء يصبح أمرا مستحيلا، كل يوم يتضاعف عدد القتلى، حتى أصبح أمرا مألوفا أن يشيع الناس قتلاهم! فمر خليل: إلى متى تستمر الأمور على هذه الصورة؟ البلدة تتذمر. ضربة واحدة تحيل البيوت إلى تراب. ويوما ما سيقتل آخر مواطن في البلدة"[1].

يلحظ الصراع مع الأحداث جليًّا في مثل هذه المقاطع من الأعمال، ويتجلى في كثرة الاستفهامات التعجبية، والتقريرية التي تؤكد الأحداث الدامية في ممارسات العدو المحتل، وفي استدعاء الصور اليومية لراوي الأحداث التي تظهر الواقع اليومي لحياة الفلسطيني، فالعدو لا يبقي على شيءٍ، يقتل، ويدمر كل شيء يتحرك على الأرض، والموت يحدق بالجميع، ويتفجر الصراع أمام حقيقة مرة كانت ترسخها الأحداث في عقل وقلب الفلسطيني يوما بعد يوم، إلى أنْ يصل إلى قناعة أنّه (يوما ما سيقتل آخر مواطن في البلدة). هذا ما أراده العدو، أن يبث الرعب والخوف والموت في قلوب الفلسطينيين، فيدفعهم إلى ترك وطنهم. يقول الراوي –وكأنه حديث النفس عما يفكر فيه الآخر المحتل– حين قال: "ربما عرف المستوطنون تغلغل هذه الصورة في حياة الفلسطينيين"[2].

الموت يطاردهم في كل وقت وفي كل مكان والمشاهد مروعة "لم ينم عدنان وأشباح الموتى تملأ جنبات البيت وتطل عليه من كل مكان، قال خليل لنفسه: حين أشار محمد أبو عامر على إخوته أن يختبئوا في (البايكة)؛ لأنَّ النوم على التبن أكثر أمنا حين تسقط القنابل، كان يقودهم إلى الموت"[3]. تتوالى الأحداث إلى أنْ تصلَ حدِّ المفارقة بل السخرية القاتمة؛ حين تتساوى المعاني المتناقضة، بل تتبدل وتتغير المعاني عما هو متعارف؛ فهو

---

[1] السعافين، إبراهيم: **الطريق إلى سحماتا**، ص2122.

[2] المصدر السابق، ص25.

[3] السعافين، إبراهيم: **الطريق إلى سحماتا**، ص25.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

يعتبر أنّ النوم على التبن أكثر أمنا؛ لأنَّه يقودهم إلى الموت، حين تتساوى المعاني المتناقضة، بل تتبدل وتتغير المعاني عما هو متعارف، (فالنوم على التبن أكثر أمنا؛ لأنه يقودهم إلى الموت). فالتبن سريع الاشتعال إذا ما تعرض للقصف، لكن السخرية القاتمة من هول الأحداث تجعله أكثُر أمنًا؛ لأنّه يقود إلى الموت المباشر، ولعل هناك حياة أصعب وأقسى من الموت.

ومن الصور المفزعة لممارسات العدو المحتل ما رواه أحد الشهود في الرواية بأنّ "عصابات الهاجاناه جنود يهود الذين يقودهم مناحيم بيجن وعددهم 3000، كان هدفهم أن ينشروا الرعب في كل مكان؛ دخلت مجموعة منهم فرن عبد الرؤوف الشريف، كان التنور ملتهبا يدفع فيه عبد الرؤوف بقطع العجين، وكان ابنه حسين ابن الرابعة عشرة يساعده، كان الحقد يشتعل في عيون الجنود الذين حملوا الصبي البريء فجأة من الخلف، وألقوه في التنور، راح عبد الرؤوف الذي أذهلته المفاجأة، والنار الملتهبة تلتهم جسد حسين وراح يبكي ويلطم وجهه وينقض على الجنود بقطعة مستطيلة من الخشب لكن الجنود طرحوه أرضا وراحوا يدوسون على رأسه، ولم يمهلوه طويلا فأفرغوا في جسده وابلا من الرصاص"[(1)]. وهناك عشرات الصور المؤلمة من الآباء والأمهات، والرجال والنساء، والشيوخ والأطفال والبيت والأرض، كلها بغرض دفع الفلسطيني إلى التهجير ويصل إلى الطريق المسدود حين يتذكر مثل هذه المشاهد من مثل مذبحة دير ياسين مثلا ليصل الفلسطيني إلى قناعة أنّه "لا مجال للبقاء؛ الذبح ينتظرنا"[(2)].

لعلّ هذه أقسى الأحداث التي يواجهها الفلسطيني وأكثرها ألمًا، كيف لا وهي التي دفعته إلى اللجوء والاغتراب بعد أن فقد عشرات الشهداء من عائلته وأقاربه وأصدقائه، وترك بيته وأرضه. لا ينفك الفلسطيني من يعاني قساوة هذه الأحداث حتى في شتاته، فبعض الذين هجروا في عام 1948 ما زالوا يحلمون بالعودة إلى الأهل والأرض والوطن، لكنهم يرون النكسات تلو النكسات كلما لاح بريق أمل، فكم قاسى إحسان في شتاته إبان حرب حزيران، حينما انتهى الخامس من حزيران عام 1967، وانقطعت الأخبار عن العائلة والأهل، قضى أياما طويلة وهو يتابع الأخبار المفزعة "رأى الآليات وهي كومة من الحديد المحترق وقد اصطادتها الطائرات على هواها، ورأى الجنود في الصحراء وهم يسيرون على غير هدى، ورأى جنود العدو يدوسون على وجوههم وعلى روؤسهم، ورأى الجنود يسترحمون الأعداء ليعطوهم شربة ماء في لظى الحر الحارق، ولكن الجنود بدلا من ذلك يطلقون عليهم الرصاص بلا رحمة، قال في نفسه، وقلبه يبكي من الألم، أنقذني يا غسان كنفاني! أهذا الجندي الصهيوني الذي رسمته في روايتك ما تبقى لكم"[(3)]. تبدّلت الديار والأوقات والأحداث هي هي، بل تزداد ألمًا يزداد معها اليأس في حلم العودة.

من الأحداث المهمة التي يصادفها الفلسطيني في الشتات –خاصة في البلاد الأوروبية – الآخر المتصهين أو الذي لديه نقص في المعلومات عن القضية الفلسطينية أو حدث له تضليل بفعل الإعلام وبفعل السياسات المسيطرة. تماما كما حدث مع (بوب)، صديق إحسان وروز، لكنَّ إحسان وروز تعاملوا مع بوب بخلاف الآخرين، فأوضحوا له الحقائق بالعقل والحوار والدلائل، وأضاؤوا أمامه الطريق إلى الرواية السليمة حول القضية الفلسطينية،

---

(1) السعافين، إبراهيم: **ظلال القطمون**، ص162–163.

(2) المصدر السابق، ص181.

(3) السعافين. إبراهيم: **الطريق إلى سحماتا**، ص38.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

يقول بوب عمن تعاملوا معه بعصبية وعواطف حادة. "مع الأسف كنت أتقرب منهم، ولكنهم كانوا يتوجسون مني، لم يكونوا حذرين، كنت أحس في عيونهم بعض الكراهية، كانوا يقولون فيما بينهم أنني صهيوني، لا ألومهم. كان عدنان خليل يكرهني، هو الذي أشاع ذلك، قال عني: بوب يروج للمحرقة، لا لأنه يحب اليهود فقط، بل لأنه صهيوني، إحسان هو الذي سمعني هو الوحيد" وأضاف "وروز أضاءت أمامي أشياء كثيرة كنت أجهلها"[(1)].

نعم، على الفلسطينيين في الشتات، أنْ يعوا ذلك جيدا، وألّا يواجهوا مثل هذه الأحداث بعواطفهم؛ فكثيرا من الطرف الآخر، لا سيما الشعوب، تجهل الحقائق، بل تم تجهيلها بفعل الإعلام الغربي، والسياسات التي رسمت لليهود صورة الشعب المظلوم الذي يمنعه الفلسطيني من إقامة وطن، ناهيك عن تعاطف الغربيين وشعورهم بالذنب مع اليهود جرّاء (المحرقة)، ولكن مثل هذه الأحداث قد تكون فرصة أمام الفلسطيني أو العربي الواعي بالقضية وتاريخها وأحداثها أن يغيّرَ بوصلة المعرفة، ويضيء ما أعتم منها، فالشعوب ليست مثل الحكومات، فهذا بوب أضحى من أكثر المتعاطفين مع مأساة فلسطين بفعل حوار إحسان وروز بالعقل والحقائق.

"بوب الذي لا يعرف عن الفلسطينيين والعرب سوى ما تصوره وسائل الإعلام العالمية الغربية، صورة إسرائيل المهددة بالتدمير والزوال من جيرانها العرب، الذين يضمرون لها العداء، صورة إسرائيل الدولة الديمقراطية الوحيدة في المنطقة، والتي حوّلت الصحراء إلى جنّة خضراء بالعلم والعمل، وبعثوا الحياة في أرض أهلها كسالى يقومون بتربية الماشية، وسرقة مستعمرات اليهود، والإكثار من النسل واقتناء الزوجات"[(2)].

مثل هذه الأحداث تكاد تكون حتميّة على الفلسطيني في شتاته في أصقاع الأرض، يسمعها ويسمع غيرها من مثلها وأكثر، وعليه أنْ يواجهها فرادى وجماعات، بوعيهم ومعرفتهم بالتاريخ والأحداث، وبوعيهم بضرورة ضبط النفس في مواجهة الآخر ومقارعته بالحجة والأدلة والبراهين، لذا كانت تنظم المنظمات الطلابية العربية في مختلف الجامعات العالمية، لتكون صوتًا لحقيقة ما يجري في فلسطين، يصدح في مسامع الآخر الذي غيبته آلة الإعلام الغربية وسياساتها عن الحقيقة.

ب. مقاومة الذات:

تتقاطع وتتشارك مقاومة الذات مع مقاومة الحدث في أغلب المواقف، غير أنَّ صراع الذات ينعكس عليها، وقد يعيش معها طويلًا، يعاني ويتألم، وقد تصل بعض صراعات الذات حد جلدها وتأنيبها، مما يؤثر عليها سلبا ويكسبها شعورا باليأس والإحساس بالذنب.

في ظل الأحداث التي مارسها العدو المحتل من قتل وترويع للفلسطينين بهدف تهجيرهم –كما سبق– تعيش الذات في صراعٍ مريرٍ في اتخاذ القرار بين الهروب والنجاة من الموت، وبين البقاء ومواجهة حتمية الموت كما يصورها المحتل. ولعلّ الصراع الأكبر ملقىً على كاهلِ الأب والأم، وهم في حيرة بين النجاة بأبنائهم وإبعادهم عن الموت، وبين الإلقاء بهم في يد الموت. يظهر ذلك في صراع أبي منصور وأم منصور مع رغبة منصور في العودة إلى الفالوجة، حيث المعارك الضارية هناك، وأنباء ترد عن استسلام المقاومين من جماعة الضبع الأسود.

---

(1) السعافين، إبراهيم: **الطريق إلى سحماتا**، ص138.

(2) السعافين، إبراهيم: **الطريق إلى سحماتا**، ص109–113. وانظر: حادثة سلمى مع طالبة التاريخ الأمريكية، ص100–101. وانظر: حادثة معاوية العمر مع الباحثة روز جنستون، ص5759.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

"نظر منصور إلى والده، وعيناه باتجاه الأرض، وكأنما يقلب الأمر على وجوهه، ووجه عصام يتلون حرجا وخجلا، وقبل أن يسأل منصور والده عن رأيه، مسح سلامة على شاربيه الكثين الأشيبين، وتأمل وجه حنة الحزين وقال: يا حنة دعيه يذهب، الأعمار بيد الله، وادعي له ورفاقه بالسلامة. صمتت حنة، ولم تعلق ومدّت مائدة الطعام. بدا القلق على وجه حنة ولكنها حاولت أن تخفي انزعاجها... ثم إنها أيقنت أن هذه رغبة منصور، ولا تريد أن ترفض بشدة تجعله بعدها مصرا على موقفه ويبدو أنه غير عابئ برأي والديه... وقالت: في رعاية الله، تصحبكم السلامة"[1].

بين خوف الأب والأم على ابنهما من جهة، ورؤية الجميع بما فيه رفاق منصور، يتحمسون للدفاع عن الأرض ومقاومة المحتل، يعيش الوالدان صراعًا مع الذات، وكأنهما في ظل ما يجري على الأرض أمام حقيقة أن الموت سيلحق بهم لا محالة، لكن الفلسطيني –وهذه عادته– يؤثر الأرضَ على النفس إيمانا بالله وقضائه وقدره.

وقد تغلب الأم عاطفتها تجاه أطفالها لا سيّما الصغار منهم، فتشعر في صراعها مع ذاتها بالذنب أنّها لم تبعدهم عن الموت، وهي ترى وتسمع شهود العيان يقولون "رأى رأسه مفصولا، بلعومه خارج جسده كالذبيحة، اقشعرّ جسده لهول المنظر"[2]. فلا شك وأن الأم وهي ترى وتسمع مثل هذا تتخيل ابنها مكان هذه الذبيحة، فمآلات البقاء في الأرض والوطن تحت هذا القصف من طائرات العدو، أيا كان الملجأ مستحيلة، فلا عجب أن يظهر صراع الذات على لسان الأم جليا، تلك القلب الحاني على أطفالها. وقد شاء السعافين أن يختم الفصل الثاني من روايته الطريق إلى سحماتا بصراخ الأطفال، وتفكير الأم بقلبها قبل عقلها إزاء أطفالها، وكأن هذا الصراخ إيذانا بخيارين لا ثالث لهما، إما الموت أو الشتات.

"صرخ الطفل: الطيارة يا أمي!! قالت رشا: لا تخف يا حبيبي، ليتني أرسلتك مع إخوتك إلى الخليل"[3]. لقد باتت الأم في صراعها مع ذاتها تلوم الذات وتؤنبها، وكأنها المسؤولة لو حدث مكروه لهذا الطفل.

كذلك تظهر مقاومة الذات في قول الراوي: "ظل يفكر، كيف يتصرف الناس بأعصاب باردة، وبيوت بلدته، التي كان أغلبها من الطين، أصبح معظمها ركاما؟ قال في نفسه: لو أنني التزمت الصمت! فأطفال البلدة ونسائها وشيوخها أعز على الله من الحاج أمين. ثم فكر بصوت مسموع: ولكنه يزاود على الحاج أمين ماذا يبقى لخليل في هذه الأيام العصيبة؟ طعم الحصار مر... ورائحة القتل والدمار خانقة... وغراب البين ينعق بين الأطلال... فجأة قفزت إلى ذهنه مشاهد مألوفة من حياة البلدة، غابت عنها كأن لم تكن أبدًا"[4].

ينمو صراع الذات ويزداد مع تنامي الأحداث وتصاعدها، فنقرأ في مثل هذه المقاطع من الروايات صراع الإنسان بصفته مواطنًا، وبصفته زوجًا وبصفته أبًا أو أمًّا، وبصفته صاحبَ أرضٍ وملك وعمل، هذا كلّه من جهة، تقابلها جهة ثانية أنَّ الكل مهدد بالموت والزوال، الزوج والولد والبيت والأرض والعمل... ويبرز الصراع في المقطع السابق من حديث النفس (قال في نفسه)... لكنَّ الصراع تنامى إلى أنْ فكّر بصوت مسموع، وكأنّه يصرخ مدوّيا ماذا بقي لنا وماذا سيبقى وكل شيءٍ حولنا يحال ويصار إلى ركام.

---

[1] السعافين، إبراهيم: **ظلال القطمون**، ص254. وانظر: **الطريق إلى سحماتا**، صراع عليّ مع ذاته، ص83.

[2] السعافين، إبراهيم: **الطريق إلى سحماتا**، ص26.

[3] السعافين، إبراهيم: **الطريق إلى سحماتا**، ص26.

[4] المصدر السابق، ص2324.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

إذن، قد يعيش الفلسطيني صراعًا كيف يفكر، هل يفكر كإنسان طامح في الحياة والعمل والاستقرار شأنه شأن الإنسان في أي مكان في العالم، هل يفكر كزوج كيف يحمي زوجته، أو كأب، أو أم يحمي أطفاله، هل يشعر بالذنب إذا أبقاهم وقد يموتون أمامه بضربة صاروخ أو قصف طائرة، هل يرحل بهم إلى مكان أكثر أمنا أو إلى نجاة من موت لا محالة آت في ظل تطور الأحداث يوميا؟

في رواية ظلال القطمون نجد منصور اللّحام يعيش أصعب الصراعات مع الذات؛ فالأمور قد بلغت ذروتها، وفلسطين تضيع أمام عينه، رغم أنّ المقاومين ما زالوا يذودون بأرواحهم عن الأرض. أمّه وبعض إخوته وأصدقائه في بيت لحم، زوجته وأبناؤه في بريطانيا، وبعض الأصدقاء الآخرين مشتتين، منهم من ذهب إلى أريحا ومنهم من سافر إلى الأردن. المنزل دمره الاحتلال، فأين يذهب منصور؟!

"لم أتعرض في حياتي لخيار صعب مثل هذا، مارجريت وسامي في كامبريدج، لكنني قررت ألا أعيش في إنجلترا، على الأقل في هذا الوقت في الذات، بريطانيا باعتنا لليهود يا عصام، أما أنت فلا أمل في أن تبقى في الفالوجة، كل شيء يشير إلى انسحاب الجيش هو اخر ما تبقى في هذه البلدة الصامدة"[1].

تقف الذات حائرةً مشتتةً بين حب الأم والأهل وضرورة الاطمئنان عليهم ،بين الزوجة والأبناء الذين يعيشون في الغربة بعيدين عنه، بين واجب النفس والوطن، واجب الأرض والشرف، والوقوف إلى جانب الأصدقاء المقاومين المدافعين عن الأرض، فكيف تقاوم الذات كل هذه العواطف، كل هذه الأفكار التي تزدحم وتجعله مقيدا بين خيارات أحلاها مرّ كما يقال.

للفلسطيني قصة عشقٍ مع الأرض، تتساوى مع عشق الأبناء عند أكثرهم وقد تزيد، فقد يفدي الفلسطيني الأرض بأبنائه، إلا أن بعضهم قد تضعف ذاته أمام إحساسه بالمسؤولية والواجب تجاه أبنائه، وبعضهم أمام مغريات الحياة وحب العيش بأمان ورفاه، فطره الله في بعض الأنفس. يقول تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[2]. كان الحاج محمود "مزارعا نشيطا يحب الأرض ويحلم عليها ويرعاها بكل ما أوتي من معرفة وعاطفة؛ لكي تدبر له في نهاية الموسم من المال ما يكفل له الإنفاق على أولاده الموهوبين الأربعة... كان الحاج محمود حائرا بين مواصلة فلاحة الأرض وانتظار ما تأتي به من منتوج لا يكاد يغطي مصاريف الأسرة والأبناء، وبين إغراء بيع قطع من الأرض تمكنه من تغطية المصاريف المتزايدة دون إرهاق"[3].

هذا ما يؤلم الذات وتجعلها تصارع وتفاضل بين الأرض أحب الأشياء للفلسطيني وأكثرها تعلقا في قلبه وبين الأبناء قطعة الروح، وإحساس الأب إزاءهم بالمسؤولية والواجب. لكن لماذا يخشى الفلسطينيين كثيرا على أرضه؟ رغم أنه يمكن أن يبيعها إلى قريبه أو صديقه الفلسطيني؟! ويمكن أنْ يشتري لاحقا غيرها إن تبدلت الظروف؟

"لم يكن أمامه مفر في نهاية المطاف، من بيع قطعة أرض أثيرة على نفسه. اسمها (الطيبة) بمبلغ فك ضيقة وجعله يشعر بالراحة بعض الوقت. لكنه حمل ضيقا في صدره طوال حياته، بعد أنْ باع أغلى ما كان يحب

---

[1] السعافين، إبراهيم: **ظلال القطمون**، ص287.

[2] سورة آل عمران: الآية 14.

[3] السعافين، إبراهيم: **الطريق إلى سحماتا**، ص45.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

من أرضه. ظل يقول: الطيبة شقيقة العمر والروح... الطيبة بعتها رغما عني... كان لابدّ من تعليم الأولاد... لكن الطيبة مثل أولادي... اشتراها الحاج ابراهيم... والحاج إبراهيم مثل أخي"[1].

نلحظ صراع الذات في المقطع السابق من خلال حديث الذات الذي يحاول أنْ يجد من هذا الصراع ويخلق التوازن النفسي، فالذات تتألم على الأرض كثيرًا، لكنه يعطي لنفسه المبررات، فقد باعها مرغمًا عنه فهناك مسؤولية تجاه أولاده الموهوبين المتفوقين، وتعليمهم، ناهيك عن أنّه في ضيق من العيش، كما أنَّ المشتري فلسطيني بمنزلة أخيهِ والأرض مثل أبنائه ولكن لماذا كل هذه التبريرات للنفس، ولماذا هذا الصراع مع الذات أصلا؟! ولماذا الأرض غالية لهذا الحد؟! إنَّ ما يخشاه الفلسطيني فقط أن تقعَ الأرض في حيازة اليهود، "هل تعلم يا عدنان كم كان يتعذب حين يرى في البعيد قطعة أرض أصبحت في حيازة اليهود كان يقول بصوت شجي يغلبه البكاء: "يا ديرتي مالك علينا لوم... يا ديرتي لومك على من خان، من الذي خان يا أبي؟ كلنا خنا يا أبي! ما الذي جاء بي إلى هنا؟ أحمل أحلامي ومستقبلي إلى أرض توفر لي كل وسائل العلم والرفاهية ولكنها تأخذ مني كل شيء، وتحرمني حتى من الذكريات... والدك يبكي قطعة من أرضه أم يبكي وطنا يا فؤاد؟"[2].

هذه الذات الفلسطينية حتى في شتاتها، وسط راحتها في بلاد آمنة توفر لها كل أسباب الرفاه والراحة لكنها تؤنب نفسها ؛لأنّها تشعر بالذنب، تشعر بالخيانة للوطن. ورغم كل محاولات المواساة بالتبريرات لا تستطيع أنْ تقاوم عقدة الذنب هذه وإنْ لم تفعلها؛ ذاك أنَّ المحتل الغاصب كان وما يزال يقدم للفلسطيني كل المغريات من الأموال، من السفر إلى البلاد الأوروبية... وغيرها، في سبيل اغتصاب أرضه. "لم يعلق في خياله إلا صورة خليل حمدان وهو يقول لمختار المستعمرة المجاورة حين ساومه على أرضه، قال الخواجا هارون: يا خبيبي خليل، أريد أنْ أشتري هذه القطعة من أرضك، قافلتنا تمر منها إلى المستعمرة أقصد مستعمرتنا (كفارجات) لا أريد أنْ أساومك، تقولون اليهود يساومون. اطلب ما تشاء، اطلب بلسانك"[3].

مغريات الذات (اطلب ما تشاء، اطلب بلسانك) هذه أكبر وأبشع المغريات التي تتعرض لها الذات فلك أنْ تتخيل أنَّ أرضا قيمتها ألف دولار مثلا، ويعرض عليك عشرات الالآف من الدولارات مقابلها. ليس هذا فحسب، بل مع الإحساس بأنها مسلوبةٌ منك لا محالة غصبًا سواءٌ أرضيت أم لم ترضَ.

"فكر مليا في رد فعل الخواجا هارون تجاه انفعال خليل حمدان، –لا تزعل يا خبيبي لماذا الانفعال؟ نحن جيران. ولكنَّ أنت لا تريد أنْ تبيعها الآن ليست مشكلة، سنأخذها عاجلًا أو آجلًا"[4]. طبعا يلمح في كلامه إلى القوة، والفلسطيني يرى مثل ذلك أمامَ عينيه، فكم أرض سُلبت من أصحابها غصبا ودون مقابل، بل لعل المقابل كان قتل صاحبها، وزوجه، وأبنائه فوق ذلك. ألا يجعل كل هذا الذات تعيش أقوى الصراعات وأعنفها، وكيف لها أنْ تقاوم كل هذه الخيارات؟

---

[1] المصدر السابق، ص46.

[2] السعافين، إبراهيم: **الطريق إلى سحماتا**، ص146.

[3] المصدر السابق، ص163.

[4] المصدر السابق، ص164.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

ثالثًا: الاغتراب

يتعرض الإنسان في حياته الفكرية والاجتماعية والسياسية إلى تغيرات في الوقائع والأحداث وسبل العيش، تطرأ مع هذه التغييرات أشياء جديدة على الذات تحتّم عليها التعامل معها بشكل لم تألفها بعد، فتظهر مؤشرات من مشاعر اليأس وفقدان معاني الوجود وأهدافه، وتعايش الذات وتصارع مشكلة الانتماء إلى العوالم الجديدة غير المألوفة. تسهم هذه التغيرات وما يصاحبها من مؤشرات في فقدان الإحساس بالاتزان، فتقتل الدافعية، ويقل تقدير الذات، فيشعر الإنسان بالاغتراب الزماني والمكاني والنفسي. ومصطلح (اغتراب) هو ترجمة للكلمة الإنجليزية (Alienation) المشتقة من الأصل اليوناني (Alienare) والذي يعني نقل ملكية شيء ما إلى آخر، أو يعني الانتزاع أو الإزالة[1].

عرف الاغتراب لغة عند ابن منظور من (غرب) أي ذهب وتنحى من الناس، والتغرب يعني البعد... والغربة والغرب يعني النزوح عن الوطن، والغريب هو البعيد عن وطنه[2]. ولعل أقدم معنى للاغتراب وجد في الحقل الديني؛ فقد جاء في سفر التكوين لا سيما في القصة المتعلقة بخلق آدم وانفصال حواء من أحد ضلوعه والهبوط من الجنة إلى الأرض، فكان هذا من أوائل الانفصال أو الاغتراب عن الذات[3]. ووردت قصة انفصال الإنسان عن عوالم الله في سورة البقرة على وجه الخصوص، حيث قصة آدم وهبوطه من الجنة إلى الأرض. وحين أراد ابن عربي أن يصف قصة الخلق والهبوط لم يجد سوى كلمة الغربة وفعل الاغتراب ليعبر عن ذلك؛ فقد جاء في الفتوحات المكية "إنَّ أول غربة اغتربناها وجودا حسيا عن وطننا، غربتنا عن وطن القبضة عند الإشهاد بالربوبية لله علينا، ثم عمرنا بطون أمهاتنا، فكانت الأرحام وطننا فاغتربنا عنها بالولادة"[4]. وللتعبير عن الصورة ذاتها أو الفكرة ذاتها أي الانفصال عن عوالم الله، وضع السهروردي قصته الرمزية الدالة (الغربة الغربية) أجرى فيها تشكيلات فلسفية لتبيان الانفصال عن (مشرق الأنوار) أي الأصل والسقوط في عالم البرزخ، وكيف أن الحكمة اللدنية (المشرقية) تقود الصوفي إلى أن يعي (غربته الغربية)، أي أن يدرك عالم البرزخ بوصفه غربا يقوم قبالة المشرق[5].

وقد يدل الاغتراب على الاغتراب النفسي، وهو ما عبرت عنه الفلسفة العربية مثلما جاء عند ابن باجه في كتابه (تدبير المتوحد) حيث قوله: "وكأن السعداء إن أمكن وجودهم في هذه المدن فإنما يكون لهم سعادة المفرد... وهؤلاء هم الذين يعينهم الصوفية بقولهم الغرباء؛ لأنهم وإن كانوا في أوطانهم وبين أترابهم وجيرانهم، غرباء في آرائهم، قد سافروا بأفكارهم إلى مراتب أخرى هي لهم كالأوطان... ونحن في هذا القول نقصد تدبير هذا الانسان المتوحد"[6]. وهذا النص يكشف بشكل قاطع معنى الغربة التي تأخذ مفهوم (التوحد) أي تموضع الذات في ذاتها، فتعيش الذات في عزلةٍ عن العالم.

---

[1] مبروك، أمل: **مشكلة الإنسان** دراسة في الفكر الوجودي، دار قباء للطباعة والنشر، ط2، القاهرة، مصر، 2004م، ص81.

[2] ابن منظور: **لسان العرب**، مجلد 10، ص32.

[3] **الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر التكوين**، الإصحاح الثاني، دار الكتاب المقدس في الشرط الأوسط، 1985م، ص6.

[4] ابن عربي: **الفتوحات المكية**، تحقيق عثمان يحيى، مراجعة إبراهيم مدكور، الهيئة العامة للشؤون والمطابع الأميرية، د. ت، القاهرة، مصر، ص8081.

[5] رجب، محمود: **الاغتراب سيرة مصطلح**، دار المعارف، ط3، القاهرة، مصر، 1988م، ص4041.

[6] ابن باجه: **تدبير المتوحد**، دار سراس للنشر، تونس، د. ط، 1002هـ، ص13.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

وفي الفلسفة الغربية يعد هيجل أول مفكر يستخدم في مؤلفاته كلها تقريبا مصطلح الاغتراب على نحو منهجي ومفصل، بل لقد استعمله في عنوان الصفحات تزيد على المئة في كتابه الأول (ظاهريات الروح) الذين نشره عام 1807، ويقول هذا العنوان "الروح المغترب عن ذاته: الحضارة، الثقافة. وبذلك تحول الاغتراب على يديه من مجرد إشكال يعانيه الإنسان في عصور الأزمة والقلق، أو مجرد فكرة... أو كلمة ترد في هذا المؤلف أو ذاك، تحول إلى مصطلح فني ومفهوم دقيق يطلق عن قصد مقصود، ومن هنا كان النظر إلى هيجل من جانب الباحثين على أنه أبو الاغتراب"[1].

نجد إذًا العديدَ من المعاني للاغتراب بحسب الحقل الموفي الذي توضع فيه، ويهمنا هنا ما يعنيه في حقل علم النفس، حيث "عدم قدرة الفرد على التواصل مع نفسه، وشعوره بالانفصال عما يرغب في أنْ يكون عليه، وتسير حياته بلا هدف، ويشعر بالاغتراب عندما لا يستطيع التحكم بأفعاله"[2]. ويندرج تحته الاغتراب الروحي، وهو من أكثر أنواع الاغتراب تأثيرا على النفس.

كذلك ما يعنيه في علم الاجتماع، فهو مصطلح "مضاد للانتماء الاجتماعي، وهو أشد الأنواع انتشارًا، وهو حالة تجعل من الفرد غريبًا عن واقعه، عن محيطه، عن أبناء عشيرته، ويحس بالضياع"[3].

تتعدد الاغترابات إذا فقد يكون اغترابا دينيًّا أو اجتماعيًّا أو نفسيًّا أو سياسيًّا أو مكانيًّا... لكنَّ ما يجمع بينها ذلك الإحساس بالانفصال والتشظي في أوطان مجهولة. غالبًا ما تتأسس الرواية الفلسطينية لا سيما المتعلقة بالشتات على الاغتراب بل يكاد يكون مصطلح الشتات معادلا لمصطلح الاغتراب؛ حيث ينشأ الاغتراب بسبب الارتحال عن الوطن طوعًا أو قسرًا، ويصبح الاغتراب أكثر مرارة حالة الشعور بعدم الانتماء الزماني والمكاني والروحي، فتعيش الذات مسلوبة الهوية أو كأنها.

يظهر الاغتراب جليًّا في أعمال السعافين، كالاغتراب المكاني، وما حدث مع معاوية العمر في أواخر عمره، حيث ازدحام المباني، والطرقات، فتغيرت ملامح البلدة التي يحبها، وكأنه يعلم في دواخل نفسه أنّ هذا التغير على المباني والطرقات لم يكن تغيّرًا أو تطوّرًا طبيعيًّا بفعل أهل البلدة وسكانها، بل في حقيقة الأمر كان للاحتلال دورٌ فيه.

"بدا في طريق العودة إلى البيت متوهّج الذاكرة، لكنه لا يشعر بأية علاقة بالمكان، أطرقت حنان حزينة مفكّرة حين طلب منها، ومن شقيقها لبيب أن يعودا إلى البيت. الطريق الذي يسلكه الآن هو الطريق الذي سلكه مئات المرات. قال لهم: إنّ الطريق إلى بيته لا يمرّ بهذه البيوت المتراصّة المزدحمة التي تطفو على أزقّتها المياه الآسنة... رجا حنان أن يعودا به إلى بيته. قال لها: هذه البيوت كلها أشبه بالقبور. لماذا تعودون بي إلى المغارة اللعينة؟ هذه المغارات مسكونة بالجنّ والعفاريت. أريد أن أعود إلى بيتي!"[4]. إنَّ معاويةَ يعيش غربة نفسية، جعلت

---

[1] رجب، محمود: **الاغتراب سيرة مصطلح**، ص13.

[2] الجبوري، يحيى: **الحنين والغربة في الشعر العربي، الحنين إلى الأوطان**، دار مجدلاوي للنشر، ط1، عمان، الأردن، 2008م، ص20.

[3] عبد الله، يحيى: **الاغتراب دراسة تحليلية للشخصيات الطاهر بن جالون الروائية**، دار فارس للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2005م، ص25.

[4] السعافين، إبراهيم: **الطريق إلى سحماتا**، ص178.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

المكان المتحضر بالبنايات، والطريقات، مكانًا موحشًا كالقبور؛ لأنّه في قرارة ضميره، ووجدانه يريد أن يعيش نشوة الأصالة.

"عودوا بي إلى بيتي، إلى هناك، بين أشجار التين والزيتون والرمان، عند السروة العالية. بيتي خلفه شجيرات صبّار، أتعرفين يا ابنتي بيتنا؟ أنا أدلّك عليه... إنّه قريب من صخرة البركة، الصخرة التي ينبع منها الماء الذي يسقي كرم هارون الصوّان... أتذكرين شجرة التوت المعمَّرة؟ بيتنا على الشارع الذي يتّجه إلى اليمين، فقط بضعة أمتار هناك. أسفل البيت يلتقي الرعاة والحرّاثون بعد صلاة الفجر بقليل، وعمّي أبو العز يلتقط الصبّار من بين الأشجار التي تحيط بمقبرة سحماتا..."[1]. إنَّ أزمة الاغتراب التي يعيشها تجعله يعيش في ذكريات الطبيعة، في ذكريات الماضي، حيث الأرض، والأشجار، والماء، حيث الفلسطينيّ الفلاح البسيط يمارس حياته الفطرية المعتادة قبل أنْ يغيّر الاحتلال وجه البلاد، فلا المكان، ولا الزمان، هما اللذان يتمنّاهما. هذا شكل من أشكال الاغتراب للفلسطينيّ قبل شتاته. أمّا الفلسطينيّ في الشتات، فإنّه كذلك قد يشعر بالاغتراب المكانيّ، ولأسباب قد تختلف عن الأسباب التي أودت بمعاوية العمر إلى اغترابه؛ كفقدان الأهل والأحباب، ناهيك عن اختلاف المكان، كحال سلمى التي بدت دائما شاردة الذهن، وكأنها تعيش غربة دائمة.

"لاحظ عدنان تغيّر سلمى، أكّدت غادة ملاحظته، همّ أنْ يقول: كلّنا نشعر بالهمّ وافتقاد الأهل الذين خلّفناهم وراءنا ولكنّه لم يفعلْ، أحسّ من واجبه أن يخفف عنها وأن يقف إلى جانبها بكل ما يستطيع لا يجوز أن يقابل شكواها بشكوى، فسلمى تمر بأزمة نفسية حقيقية. تتحدث عن معاوية وتماضر باستمرار، وتروي قصصا وتكررها وتنسى أنها ترويها في اليوم أكثر من مرة، وكأنها ما غادرت البيت، واستغرقت في لحظة زمنية لا تفلت منها"[2]. إنَّ السببَ وراء هذه الأزمة النفسية التي أفضت إلى اغتراب مريع، هو فقدان الأهل والأحباب، هذا الفقدان الذي بدوره كان الفاجعة التي شوّهت نفسية هذه الفتاة وجعلتها تعيش على ذكريات الأهل والأحباب، وتطاردها كالشبح أينما حلّت.

"أين أنتِ يا جميلة درويش؟ أين أنت يا لور عواد؟ أين أنت يا هدى زهراء؟ أين أنتِ يا سعاد غنام؟ وأين أنت يا منى بنت عيسى حرب؟..."[3]. يتجلى الحنين إلى الأهل، والأحباب، والأصدقاء، بهذه الأسئلة المكررة التي تحشد في طيّاتها صدى كبير ومكانة في قلب الفلسطيني في شتاته، فمهما لاقى أو صادف من أحباب، وأصدقاء جدد يظل يشعر بينهم بالغربة، فحنينه إلى مَن تعلق قلبه بهم.

لقد مارس المحتل أقسى وأبشع صور التنكيل والدمار والقتل بالفلسطينيين، فدفعهم ذلك إلى اللجوء أو الغربة؛ حتى غدت هُوية الاغتراب والشتات دالّة على الفلسطينيين. "تفرّقنا فلا مكان في أقصى الأرض إلا وفيه فلسطينيون، قال والدها يومًا: إنّنا للارتحال، إنّنا للغربة، إنّ جرثومة الاغتراب استقرت فينا، لا تبرحنا بعد حادثة الرحيل، هذه الجرثومة لن تبرحنا أبدًا حتى لو عدنا إلى نبع الذكريات، حياتنا كلّها أصبحت ذكريات"[4]. هكذا يصف أحد الفلسطينيين اغترابه في شتاته، بالجرثومة المستقرة في نفسه، ولعل هذه الحالة التي وصل إليها الشعب

---

[1] المصدر السابق، ص179.

[2] السعافين، إبراهيم: **الطريق إلى سحماتا**، ص116.

[3] السعافين، إبراهيم: **ظلال القطمون**، ص296.

[4] السعافين، إبراهيم: **الطريق إلى سحماتا**، ص32.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

الفلسطيني كان وراءها اليأس من حلم العودة الذي راود الفلسطينيين منذ رحيلهم عن أرضهم وأهلهم، فباتوا يقتاتون على الذكريات.

الخاتمة

في ضوء ما تقدّم من حديث عن تجربة السعافين في فنون النثر (الرواية والسيرة الذاتية) وباعتبار أنَّ الشتات هو موضوع يشكل تحديًا كبيرًا في العديد من المجتمعات والثقافات، فإن دراسة تمثيلاته في أعمال الأدب والفن تعد ضرورية حيثُ قدمت أعمال إبراهيم السعافين النثرية (الرواية والسيرة الذاتية) رؤية متعددة الأبعاد لتجارب الشتات والانتماء، وسلطت الضوء على الصراعات الداخلية والخارجية التي يواجهها الأفراد الذين يعيشون بين ثقافتين أو أكثر. تميّزت تمثّلات الشتات في أعمال السعافين بالآتي:

أولًا: أنَّ السعافين ينقل ببراعةٍ مشاعرَ الاغترابِ والوحدةِ والتشتتِ من خلال شخصياته وأحداث قصصه، مما يجعل قراءه يتعاطفون مع تجارب الشخصيات ويتأملون في تأثيرات الشتات على الهوية والعلاقات الإنسانية.

ثانيًا: بالإضافة إلى ذلك تسلطت الضوء على الهوية والمقاومة والإغتراب وأهمية بناء جسور الفهم المتبادل بين الثقافات المختلفة. يمكن لهذا التفاعل الثقافي أنْ يلعب دورًا مهمًّا في تخفيف تأثيرات الشتات وتعزيز الشعور بالانتماء والتفاعل الإيجابي بين أفراد المجتمع.

ثالثًا: تمثّلات الشتات في أعمال إبراهيم السعافين النثرية تبرز أهمية فهم الشتات كظاهرة إنسانية وثقافية معقدة. أنَّها تقدم تصويرًا مؤثرًا لتجارب الشتات والانتماء والهوية. تشير التمثلات المتعددة في أعماله إلى تعقيدات الانتماء والفقدان والبحث عن الهوية في سياقات جديدة.

المصادر والمراجع

- ابن باجة، **تدبير المتوحد**، دار سراس للنشر، تونس، د. ط، 1002هـ.
- بدوي، أحمد زكي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، مكتبة لبنان، ط1، بيروت، لبنان، 1977.
- الجبوري، يحيى، **الحنين والغربة في الشعر العربي، الحنين إلى الأوطان**، دار مجدلاوي للنشر، ط1، عمان، الأردن، 2008م.
- رجب، محمود، **الاغتراب سيرة مصطلح**، دار المعارف، ط3، القاهرة، مصر، 1988م.
- زايد، أحمد، **سيكولوجية العلاقات بين الجماعات**، مجلة عالم المعرفة، العدد 326، الكويت.
- زيادة، معن، **الموسوعة الفلسفية العربية**، معهد الإنماء العربي، مجلد 1، ط1، بيروت، لبنان 1986.
- سبارتي، ديفيد، **الهوية وإحراجاتها، من الهوية الشخصية إلى الاعتراف الاجتماعي**، ترجمة زواوي بفوره، مجلة تبيين للدراسات الفلسفية والنظارات النقدية، المركز العربي للأبناء والدراسات السياسية، العدد 41، مجلد 11، صيف 2022، قطر العربية، معهد الإنماء العربي، مجلد 1، ط1، بيروت، لبنان، 1986.
- السعافين، إبراهيم، **الطريق إلى سحماتا**، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 2017.
- السعافين، إبراهيم، **ظلال القطمون**، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 2020.
- السعافين، إبراهيم، **سلالة السنديان**، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 2023.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

- الشامي، رشا عبد الله، **إشكالية الهوية في إسرائيل**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 224، الكويت 1997م.
- الشيرازي، ناصر الدين، **تفسير البيضاوي**، دراسة وتحقيق عبد القادر عرفان العشا، دار الفكر، ج1، بيروت، لبنان، 1416هـ-1969م.
- عبد الرحمن، محمد السيد، **مقياس موضوعي لرتب الهوية الأيديولوجية والاجتماعية**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، مصر، القاهرة، 1998.
- عبد الله، يحيى، **الاغتراب دراسة تحليلية للشخصيات الطاهر بن جالون الروائية**، دار فارس للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2005م.
- ابن عربي، **الفتوحات المكية**، تحقيق عثمان يحيى، مراجعة إبراهيم مدكور، الهيئة العامة للشؤون والمطابع الأميرية، د. ت، القاهرة، مصر.
- عطية، محمد عبد الرؤوف، **التعليم وأزمة الهوية الثقافية**، مؤسسة طيبة، ط1، القاهرة، مصر، 2009م.
- قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، ط15، مجلد1، ج2، القاهرة، مصر، 1408هـ.
- القليقلي، عبد الفتاح، وأبو غوش، أحمد، **الهوية الوطنية الفلسطينية**، المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين، بيت لحم، فلسطين، 2012.
- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، بيروت 1985، **العهد القديم**، سفر التكوين، الإصحاح الثاني، دار الكرنك، القاهرة.
- مبروك، أمل، **مشكلة الإنسان – دراسة في الفكر الوجودي**، دار قباء للطباعة والنشر، ط2، القاهرة، مصر، 2004م.
- محمود، حسن، **الضفة الأخرى، دراسات في الثقافة واللغة والنقد**، دار وائل للنشر، ط1، عمان، الأردن، 2008م.
- ابن منظور، **لسان العرب**، مجلد 10.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024